المشروع النهضوي التعليمي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين

د.مراد بوعباش
أستاذ محاضر أ
المدرسة العليا للأساتذة .بوزريعة

مقدمة:

بدأت عناصر الهوية في الجزائر تتفاعل منذ شرع الاحتلال الفرنسي يوطد دعائمه المادية و المعنوية فيها ، فأنجبت سياسته المسخ و التشويه السياسي و العقدي و اللغوي و التاريخي ، فانطلق الفعل الاستعماري و رد الفعل الوطني جنبا إلى جنب ، لينتج ذلك كله ركاما من القضايا و المشاكل .

من مزاعم الاحتلال الفرنسي التي سعى لإخفاء نياته بها ، أنه جاء لدفع ظلم الأتراك عن الجزائريين و رفع الأمية عنهم ، و رغم مساوئ الحكم التركي ، فهو حكم إسلامي ، قائم على الشرعية التامة بمعيار ذلك الزمان ، و هو إن لم يشجع رسميا الحركة التعليمية فإنه لم يعرقل جهود المواطنين في تشييد المؤسسات على عكس ما فعل الاحتلال الفرنسي بعدُ ، حيث كانت تلك المؤسسات معاقل للمعرفة : مدارس و كتاتيب ، و زوايا ، و مساجد ، و غيرها تقترب من ألفي مؤسسة تعليمية عشية الاحتلال ، يتعلم فيها و يدرس نحو خمس و عشرين ألف تلميذ و طالب في مختلف المراحل و المستويات ، وجدت نفسها في مواجهة سياسة الاحتلال الخاصة بالفرنسة ، و التنصير ، و هي الخطوة المصاحبة لسياسة الحرق لقرى بأكملها ، و إبادة عشائر برمتها ، لفرض الأمر الواقع بالقتل و الحرق و التشريد [1].

بموازاة العمل العسكري إذن كان النشاط الاستعماري يجري حثيثا من أجل فرنسة الجزائر لغة، و تنصيرها عقيدة ، فعمل على تأسيس ما يسمى بالمدارس العربية الفرنسية في سنوات (1836-1850) لاستقطاب الجزائريين بتعليم مزدوج (عربي-فرنسي) .

في سياق الاحتلال الفرنسي لفرنسة اللسان و الفكر و الشعور على الجبهة التعليمية و الاجتماعية ينبغي ألا نسهو عن جسر آخر دشّنه المحتل على هذه الجبهة لا لمجرد التعليم فحسب ، بل للتوغل عبر وسائط في حياة الجزائريين ، و هو ما يمثله مشروع المدارس الفرنسية الإسلامية الثلاث ذات الطابع التخصصي ، التي أنشئت بمرسوم صادر في (1850/09/30 م) ، تنحصر مهمتها في إعداد موظفين في الشؤون الدينية و القضائية و الإدارية ، يصير المتخرجون منها همزة الوصل بين المحتلين و المواطنين ، ينوبون عن المحتل بإدارة شؤون المواطنين في المنازعات القضائية و الدينية .[2]

و إن تكلمت قليلا في الجانب التعليمي الخالص كملامح من وجوه المعركة ، فإن الجانب

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(التنصيري) ملمح قوي على هذه الجبهة ، حيث بدأ الاستعمار اختراقاته في صفوف شعب كان آمنا مطمئنا على لغته و عقيدته و قيمه ، فبكر بالضربات الموجعة في الصميم ، و هو يصادر أوقاف المسلمين ، و يحوّل المساجد إلى (اصطبلات) و (كنائس) و يغلق المدارس الأهلية و الكتاتيب القرآنية و يدمر زوايا لم تنصع لسياسته .

و قد انطلقت جهود (الآباء البيض) أي (رجال الدين المسيحي) جنبا إلى جنب مع جنرالات الجيش الفرنسي ، و من (رجال الدين أولئك) من كانوا ضباطا ، و منهم من بقوا ضباطا سريين ، في الأديرة و الكنائس ، و خارجها ، لتنصير (الجزائر) العربية المسلمة ، و مسخ ثقافتها ، عبر استدراج ذوي النفوس الضعيفة ، و الإيمان المهتز ، بل بكر بهدوء رجال (النصرانية) لأن تكون (الجزائر) قاعدة قوية واسعة للتنصير ، ففيها تأسست واحدة من أخطر جمعيات (التبشير) أو التنصير في العالم ، بعبارة أوضح و أدق ، حين أسس أسقف الجزائر (الكاردينال لافيجري) جمعية من الكهنة سنة (1868) التي سرعان ما صارت لها معاهد عديدة ، و برامج ضخمة للانتشار في إفريقيا كلها .

جبهة (التنصير) لم تكن في جوهرها إذن مفصولة عن جبهة السياسة التعليمية ككل ، فتعليم (الفرنسية) كان بالضرورة ينمي الميول المسيحية التي آتت أكلها ، خصوصا في بعض المدن و القرى ، بما كان يسمى (القبائل الكبرى) مثل (عين الحمام) التي كانت تسمى (ميشلي) و (تادميت) و غيرها، والصحوة فيها بعد الاستقلال بطيئة تعاني لعدة عوامل .

الجبهة التعليمية الاستعمارية في (الجزائر) توجت بصرح مهم ، هو (جامعة الجزائر) سنة (1908) لكنها القلعة الحصينة التي لا يصلها الجزائري إلا بعد مروره في (غرابيل) عديدة ، في كل المراحل السابقة ، حيث لا تتاح الفرصة فيها إلا لمن بات مضمونا في (حجر الاستعمار) يجري في دمائه حب (فرنسا) .

التربية و الإصلاح لدى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين :

لقد حدد ابن باديس ملامح التربية و الإصلاح التربوي [3] بضرورة الاهتمام بالإنسان كهدف رئيسي عام ، علما و عملا و فكرا و سلوكا ، و هذا الاهتمام يتمثل في ضرورة التعليم المدرسي و التعليم بالقدوة و تنظيم الجماعة و خلق الوعي العام .

و في هذا يقول ابن باديس : العلم قبل العمل، و من دخل العمل بغير علم لا يؤمن على نفسه من الضلال و لا على عبادته من مداخل الفساد و الاختلال ...

و قال أيضا : إنّ ما نأخذه من الشريعة المطهرة علما و عملا فإننا نأخذه لنبلغ به ما نستطيع من كمال في حياتنا الفردية و الاجتماعية ، و المثال الكامل على ذلك كله هو حياة محمد صلى الله عليه و سلم في سيرته الطيبة .

و لأن التعليم هو الوسيلة الأساسية لإحداث كل تغير و إصلاح ، استخدم ابن باديس لتحقيقه كافة الوسائل كإلقاء الدروس و التفسير و تعليم كتب السابقين و شرحها و استنباط القواعد و الحكم منها ، ومثال ذلك تدريسه لكتاب الشفاء للقاضي عياض ، و إحياء علوم الدين للغزالي ، و العواصم من القواسم لأبي بكر بن العربي ، و غيرهم .... ثم اهتمامه بأسلوب التذكير كأداة للتفهيم يعتمد على التفكر و التأمل و هذه العملية لا غنى للعقل عنها كما أن لها أبعادها الاجتماعية ... و

يعلــل ابن باديس أهمية العقل في إتمام عملية التذكير و التفكير في آلاء الله و آثاره و ملاحظة التغيرات الاجتماعية و أطوار الأمم فيقول : « إن العقول في حالة البعد عن التفكر و التذكر كثيرا ما تكون مغلولة بقيود أهوائها محجوبة بحجب غفلتها فتعمى عن تلك الدلائل و الآثار و يكون تورطها في كبائر الذنوب و صغائرها على مقدار تلك الحجب و تلك الآثار ، كما أن التذكر هو عملية تفكر و تأمل في دلائل العظمة و الوحدانية ، و لذا فإن تمام التوحيد لا يكون إلا بالتفكر في سر دلائل الربوبية و الآلوهية و إفراد الله بالعبادة ، لأن توحيده في ربوبيته يقتضي العلم بأنــه لا خالق غير الله و لا مدبر للكون و لا متصرف فيه سواه ...

و يشير ابن باديس إلى أهمية التعليم بالقدوة و أثره في إصلاح النفوس في مقال بعنوان «إصلاح التعليم أساس الإصلاح» فيقول : « لن يصلح المسلمون إلا إذا صلح علماؤهم لأنهم بمثابة القلب للأمة ، وليصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم « . فالتعليم في نظره هو الذي يطبع المتعلم بالطابع الذي يكون عليه مستقبل حياته ، و ما يستقبله من عمله لنفسه و لغيره و لن يصلح التعليم إلا إذا رجعنا به للتعليم النبوي في شكله و موضوعه و مادته و صورته .

التعليم الحر و مدارس جمعية العلماء :

– التعليم العربي الحرّ و مدارسه و معلّموه :

كانت الإدارة الجزائرية إلى ما قبل حرب 1914م تتظاهر بشيء من التساهل مع التعليم العربي الحر ، لأنه كان – إذ ذاك- قاصرا لا يفتح ذهنا و لا يغذّي عقلا و لا يربي ملكة لغوية ، فلمّا هبّ شعور الأمة و قوي باحتياجها إلى فهم لغتها لتفهم دينها ، و تطور التعليم الحر في العقدين الأخيرين كسائر الكائنات الحية ، و أصبح على شيء من النظام و الحياة و خصوصا بعد ظهور جمعية العلماء – قلقت الإدارة الجزائرية لذلك . و لما لم تجد الإدارة الجزائرية بيدها من القوانين العامة ما تتخذه سلاحا ، التجأت إلى القرارات الإدارية . فأنشأت عدة قرارات منها ، ترمي إلى غرض واحد،و هو قتل اللغة العربية،بالتضييق على تعليمها ، و مطاردة رجالها ، و إلجام صحافتها .[4]

ومن أسوأ ما في تلك القرارات أثرا و أشده إيلاما و جرحا لعواطف المسلمين عامة و للعرب خاصة ، ما جاء في بعض بنود تلك القرارات من اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في بلاد عربية و هي الجزائر ، و جاء دور تنفيذها على يد صغار الإداريين ، فبالغوا و أسرفوا في التنكيل و المحاكمة ، وَسيقَ معلمو العربية إلى مجالس القضاء كما يساق المجرمون ، و فرضت عليهم العقوبات المالية و البدنية من سجن وتغريب ، و لا زالت بقاياهم في المنفى إلى الآن .

احتجّت جمعية العلماء على تلك المعاملات بالاحتجاجات المتوالية ، فلم تسمع لها شكوى و لم يرجع إليها جواب ، و طلبت المفاهمة الشفاهية ، فأجيبت بالمماطلة و التسويف ، و عطلت الجرائد ، و أغلقت النوادي ، و كل ذلك بعضه من بعض .

و من الغريب أن جمعية العلماء صرحت للحكومة مرارا بأنها تقبل بكل سرور مراقبة مدارسها من طرف مفتشي المعارف الرسميين ، و لكن لم تر في هذه السّنين الطويلة مفتشا واحدا زار مدرسة من مدارسها ، و ما كانت ترى إلاّ عون البوليس يزورها لتبليغ الأمر بالإغلاق ، أو العون الشرعي يزورها لتبليغ الاستدعاء للمحاكمة .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مطالب جمعية العلماء في قضية التعليم العربي :[5].

أولا :إلغاء جميع القرارات السابقة المتعلقة بالتعليم إلغاء صريحا سواء كانت إدارية أو وزارية.

ثانيا :نسخ جميع تلك القرارات بقانون صريح يقرر حرية التعليم العربي و عدم تقييده بشيء ، ويلاحظ في وضع ذلك القانون المسائل الآتية :

أ- جمعية العلماء أو الجمعيات العلمية الأخرى يكون لها الحق بمقتضى ذلك القانون أن تنشيء ما تشاء من المدارس فيما تشاء من المدن الجزائرية .

ب- ليس على الجمعيات إلاّ إعلام الإدارة باسم المدرسة و محلها و بأسماء المعلمين فيها ، ثم تشرع في العمل بلا توقّف على إجراءات أخرى .

ج- يتضمّن القانون ضمانات كافية مقنعة في عدم الالتجاء إلى تعطيل المدارس العربية للأسباب السياسية أو غيرها من الاعتبارات ، لأن تعطيل المدارس العربية في نتيجته يعد عقوبة لأولاد متعلمين لم يقترفوا أسبابها ، و هذا ظلم لهم .

د- كما لا تتدخل الإدارة في اختيار المعلمين ، و لا تتدخل في وضع البرامج التعليمية ، و لا في اختيار الكتب المدرسية .

هـ- على جمعية العلماء و الجمعيات العلمية الأخرى أن تخضع للمراقبة الصحية العامة في دائرة قوانينها و لمراقبة التفتيش الرسمي .

الجمعية و النشاط الثقافي التعليمي :

لم يقتصر اهتمام جمعية العلماء على المحافظة على مقومات الشعب الجزائري بل تعدى عملها الى تنشئة الشعب وفق منظومة تربوية محددة بطابعها الديني و الثقافي و الاجتماعي و السياسي ليكون مسايرا لما هو موجود و محافظا على ذاته في ن

واحد . فقد كانت الجمعية ترى بأنّ الواقع الذي يوجد فيه الشعب الجزائري يقتضي منها العمل على بناء مجتمع جديد وفق رؤي اجتماعية و دينية و ثقافية جديدة.

لقد آمنت الجمعية بالعلم سواء بنشره في المدارس الفرنسية أو في مدارسها الخاصة ، فهي تراه ضروريا في أي عمل سياسي ، و لهذا أرجع الإبراهيمي سقوط العالم الإسلامي إلى إنزواء علماء الدين عن الواقع و تركه للحكام الجهال يأمرون و ينهون متجاهلين الرسمية .

لذلك نادت الجمعية باليقظة و الإصلاح من جهة و إعداد جيل جديد يفهم الإسلام فهما صحيحا ، و يهتم بقضية التربية و التعليم التي تمثل القاعدة الأساسية و ذلك ما تجسد بخلق نظام دراسي عربي حر عصري ، و متفتح يقوم خطه العام على ثلاثة محاور أساسية ، عماد الجمعية و شعارها « الإسلام ديننا، و العربية لغتنا ، و الجزائر وطننا «

و لقد صرح الإبراهيمي لتلاميذ الزيتونة و القرويين خلال الأربعينيات من القرن الماضي بقوله :» العلم إن كنتم لا تعلمون أساس الوطنية ، و قطب رحاها و دليل سيادتها ... و أن هذه الحركة العلمية الجليلة القائمة بالقطر الجزائري، هي الأساس المتين للوطنية الحقيقية، و هي التوجيه الصحيح للأمة الجزائرية « [6].

كما رفع الإبراهيمي مذكرة إلى الجامعة العربية يقول فيها : « إن صفوة رأي الجمعية في السياسة الجزائرية ، تحرير الجزائر على أساس العروبة الكاملة ، و الإسلام الصحيح ، و العلم الحي ، فهذه الجهود التي تبذلها جمعية العلماء في سبيل العروبة و الإسلام و التعليم ، كلها استعداد للاستقلال و تقريب لأجله «[7].

و يمكن إيجاز جهود جمعية العلماء التعليمية في

ثلاث مراحل :

1/ المرحلة الأولى (1931-1939)

و تعتبر مرحلة التأسيس ، حيث قامت الجمعية من خلال عملها و مبادئها التي أنشأت من أجلها التعريف بمبادئ الدين و اللغة من خلال تأسيس العديد من المساجد و المدارس و تلقين الناشئين مبادئ القراءة و الكتابة و الدين ، و تاريخ الجزائر ، ... و قد كان ابن باديس يرى في مسالة التعليم بقوله : « إنّ مسالة تعليم أولادنا هي في نظر كل مسلم مسالة المسائل و أعظم المطالب ، لأنها عبارة عن حفظ الإسلام في قلوب أبناءنا و بقائهم مسلمين لا يموتون إلاّ و هم مسلمون ، و هذا الإسلام عندنا أعز من الأرواح و الأموال و كل عزيز . فكان التعليم الذي يحفظها علينا ألزم لنا من القوت الذي تتغذى به الأبدان ، و من الهواء الذي يعيش عليه الحيوان ، ، و منعنا منه أشد من منعنا منهما ، فلن نستطيع صبرا على منعنا منه ، و لا سكوتا على من يتسبب في ذلك المنع كائنا من كان «[8].

2/ المرحلة الثانية (1939-1940):

و فيها تم تجميد نشاط الجمعية نتيجة الحرب العالمية الثانية ، كما خضعت البلاد للأحكام العرقية، كما تم نفي رئيس الجمعية الشيخ الإبراهيمي إلى آفلو .

3/ المرحلة الثالثة (1944-1956):

و التي تعتبر من أنشط الفترات بالنسبة للجمعية في نشر رسالتها التعليمية من خلال مدارسها و بعثاتها العلمية إلى الخارج .

و كان معهد ابن باديس الثانوي نواة لإنشاء ثلاث معاهد بالجزائر (قسنطينة، الجزائر، تلمسان).

إن أهمية التعليم لا تخفى على رجال الجمعية حيث وضعوا نصب أعينهم الاهتمام بالمؤسسات التعليمية و تطويرها و لقد قال الإبراهيمي بهذا الصدد :» إن المدرسة هي جنّة الدنيا ، و السجن هو نارها ... و الأمة التي لا تبني المدارس تبنى لها السجون ، و الأمة التي لا تصنع الحياة يصنع لها الموت . و الأمة التي لا تعمل لنفسها ما ينفعها و يسعدها يعمل لها غيرها ما يضرها و يشقيها .. عن المدرسة هي طريق الحياة و طريق النجاة ، و أنّ الوطن أمانةالإسلام في أعناقنا ووديعة العرب ف يذممنا ، فمن حقه علينا أن نحفظ دينه من الضياع ، و أن نحفظ لسانه من الانحراف ، و انه لا سبيل إلى ذلك إلا بالمدرسة التي تبنيها الأمة بمالها و تحوطها برعايتها و تجعلها حصونا تقي أبناءنا شر الانحلال الديني و الانهيار الخلقي و تحفظهم من تر فالغنى و ذل الفقر و تربيهم على الرجولة و القوة و توحيد النزعات و تصحيح الفطرة و تقويم الألسنة ، ... و تغرس في نفوسهم و تصلح فيهم ما أفسده المنزل و الشارع و تروضهم على حب الوطن و بنائه «[9].

و لم يقتصر الإبراهيمي على العمل التربوي و الإصلاحي ، بل طرق أبواب العمل التعليمي فقد كان له الفضل في إنشاء مدرسة للتعليم الحر بتلمسان و اتخذ لها اسم « دار الحديث « [10]. و كان ذلك يوم 27 سبتمبر 1937 و ألقى ابن باديس بالمناسبة كلمة جاء فيها : « إنّ هذه المدرسة هي الشاهد الذي لا يكذب على صدق النهضة الإسلامية العلمية و نظوجها ووصولها إلى درجة الكمال التي يفرح لها العاملون ، و ييأس منها الظالمون....» ([11]

و بعد الحرب العالمية الثانية سعى الإبراهيمي في إنشاء مدرسة أخرى سنة 1947

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

و هو معهد ابن باديس و كان الهدف منه كما يقول : « لما بلغ عدد المتخرجين من مدارسنا بالشهادة الابتدائية عشرات الآلاف وجدت نفسي امام معضلة يتعسر حلها... ذلك أن حاملي هذه الشهادة ذاقوا حلاوة العلم فطلبوا المزيد و أرهقوني من أمري عسرا و الحوا علي أن أتقدم بهم خطوة إلى الأمام ، و حرام علي أن أقف بهم دون غاياته ، فكان واجبا علي أن أخطوا بهم إلى التعليم الثانوي، وذهبت بالأمة أن تعينني بقوة ابلغ بها غرض أبنائها فاستجابت ، فكان ذلك مشجعا على إنشاء معهد ثانوي بمدينة قسنطينة نسبناه إلى إمام النهضة ابن باديس « [12] .

و نلاحظ من خلال هذا أن المدرسة هي أساس العملية التي ينطوي عليها العمل المستقبلي ،فالنشء يدخل مدارس الجمعية ثم البعثات إلى الخارج ثم يكون له شان كبير مستقبلا بما يحمله من أفكار وطنية مناهضة للوجود الاستعماري.

البعثات العلمية:

لم يكن في مقدور جمعية العلماء و مشايخها خلال هذه المرحلة من تاريخها أن تمارس نشاطا تعليميا أعلى ممّا وصل إليه مستوى التعليم في معهد ابن باديس ، فرأت إدارة جمعية العلماء أن تبعث بتلاميذها خارج البلاد لمتابعة دروسهم في مختلف البلدان الشقيقة ، و قد وجدوا صدورا رحبة من المسؤولين في البلدان العربية والإسلامية ففتحوا لهم أبواب المدارس و المعاهد و الجامعات ، و انطلق تلاميذها يتابعون دراستهم في الخارج .

لقد كان هدف الجمعية من إرسال البعثات التعليمية تتمحور على ثلاثة خصائص :

1 – اكتساب الثقافة و هي العملية المعرفية الأولى وفق القيم الإسلامية و المبادئ الأخلاقية .

2 – تكامل الثقافة لدى الطالب في شخصه و تناميها مع ثقافة المجتمع بحيث يصبح الالتزام بهذه الثقافة واجب أخلاقي.

3– التكيف مع البيئة الاجتماعية ، و بالتالي يحتل مكانة في مجتمعه.* و الهدف منه رفض الوضع القائم و قد يصل الفرد إلى التمرد عليه إلى حد الثورة ، ثم إصلاح الوضع القائم من خلال تغيير نمط القيم الموجودة و السلوكات و الاتجاهات تتلاءم مع مبادئ الشعب.[13].

و كان جامع الزيتونة من أقرب دور العلم الى الجزائر ، و أوثقها صلة بها ، حيث كان الطلاب الذين يتمّون دراستهم بمعهد ابن باديس يتّجهون إليه لمتابعة دروسهم ، و قد كان التعاون بين معهد ابن باديس و جامع الزيتونة في مناهج التعليم و الإشراف على امتحان الشهادة التي يمنحها المعهد لتلاميذه ، و كانت لجنة التعليم تعلن لتلاميذها عن شروط الالتحاق بالبعثات للبلاد العربية على نحو الصورة التالية :

بلاغ لجنة التعليم[14].

الالتحاق بالبعثات للبلاد العربية :شكلت الإعلانات التي كانت تقوم بها مكاتب الجمعية للطلبة الراغبين في الالتحاق بالبعثات الى الخارج هدفا استراتيجيا هدفه جلب اكبر عدد من الطلبة ، و من اهم الاعلانات ما يلي:

يعلم المكتب الدائم لجمعية العلماء جميع من تتوفّر فيهم الشروط المذكورة في هذا البلاغ من تلاميذ مدارس الجمعية و المعاهد ممن يرغبون في الالتحاق ببعثات الجمعية إلى الشرق سواء منهم الذين قدّموا مطالب قبل اليوم و اللذين لم يقدموا بأن عليهم أن يكاتبوا مركز جمعية العلماء بالجزائر ابتداءا من اليوم إلى 15-09-1954م باستعدادهم و التزامهم .

شروط الالتحاق :

– لا يقبل إلاّ خريجو مدارس الجمعية أو المعهد .

– أن يكون خريج المدرسة متحصلا على الشهادة الابتدائية و أن لا تتجاوز سنة (16 سنة)

– يلحق بخريج المدرسة تلاميذ السنتين ، الأولى و الثانية من المعهد على أن لا يتجاوز السن (16 سنة).

– أن يكون خريج المعهد متحصلا على الشهادة الأهلية غير متجاوز (20 سنة) .

– أن يعد الطالب تسعين ألف فرنك (90000) مع جواز السفر .

تنبيهات :

(أ) في الأيام الأخيرة إذا لم يتحصّل الطالب على جواز سفره فعليه أن يتصل بنا مع تقديم أوراقه .

(ب) على من يبعث بطلبه إلينا أن يكتب على ظهر الرسالة كلمة (بعثات) .

(ج) على مديري المدارس التي نجح تلاميذها الذكور في امتحان الشهادة الابتدائية العربية أن يعلموا أولياء التلاميذ بهذا البلاغ ، و نرغب منهم أن يتولوا بأنفسهم عمل طلبات التلاميذ ، مع ملاحظة المدير في كل طلب على سيرة التلميذ و أخلاقه و مدى استعداده .

منذ ميلاد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في 5 ماي 1931 و اعتمادها على جانب التربية و التعليم ، قامت الجمعية بإرسال البعثات الطلابية إلى العالم الإسلامي ، حيث استقبلت تونس سنة 1936 ما يقارب 200 طالبا (15).

كما زار الإبراهيمي تونس و اجتمع بطلبتها ، و قام بتأسيس « جمعية الطلبة الزيتونيين الجزائريين «، كما أرشد الطلبة إلى توظيف الكتابة في الصحافة التونسية (16).كما وجه في شهر جوان 1947 رسالة الى الطلبة الزيتونيين طالبا منهم عرض فكرة توأمة معهد ابن باديس كفرع من فروع جامع الزيتونة فرحب مديرها بالفكرة .[17]

و كان الإبراهيمي يهدف من خلال ربط معهد إبن باديس بالزيتونة إلى :

أ – ربط المؤسسات العلمية العربية فيما بينها.

ب – تمكين حاملي شهادة معهد إبن باديس بالالتحاق بالجامعات المشرقية.

ج – توطيد أواصر الأخوة و التعاون بين الأقطار العربية و الإسلامية خاصة مع وجود الاستعمار.

كما وصل عدد طلبة منطقة ميزاب لوحدها سنة 1927 ما يقارب 47 طالبا ثم ارتفع إلى 100 طالبا عام 1936 ليبلغ 200 طالبا سنة 1954 .[18].

و بلغ عددهم سنة 1952 نحو 1500 طالب.

إلى جانب تونس فقد كان للمغرب كذلك نصيبه من البعثات التعليمية و خاصة في جامع القرويين حيث بلغ عددهم خلال الأربعينيات من القرن الماضي حوالي 150 طالبا .

كما يذكر الأستاذ عمار هلال أن هجرة الطلبة إلى جامع القرويين بالمغرب كانت خلال الخمسينيات وتمثلت في طلبة جمعية العلماء و كان عددهم لا يتجاوز عشرة طلاب .[19].

و الفرق بين تونس و المغرب يفسره الإبراهيمي بقوله :» جامع القرويين دون جامع الزيتونة نظاما و اتساعا في الدراسات و ابعد عن التجديد و الإصلاح لأنّ أصابع الاستعمار الفرنسي قد شتت فيه أكثر من جامع الزيتونة..» [20].

ورغم ذلك حسب هلال دائما فإن عدد الطلبة ارتفع في القرويين من 149 طالبا خلال الموسم 1950-1951 .

و هذه الزيادة تعود بالدرجة الأولى إلى إقبال رجال الجمعية بربط أواصر الأخوة بين الشعبين.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(21)

أما في المشرق العربي ، فقد كانت معه المحطة الأبرز في تاريخ البعثات العلمية للجمعية .

و يذكر الشيخ خير الدين أن أول بعثة للمنطقة وصلت معه كانت عام 1952 و بلغ عدد طلابها 23 طالبا[22].

و ما لا شك فيه أن هجرة الإبراهيمي إلى المشرق سنة 1952 كان لها الفضل في تلاتيب شؤون الطلبة ، و لقد سعى لدى الكثير من البلدان العربية للتكفل بالطلبة و حصولهم على المنح و المساعدة بغية مزاولة دراستهم [23] .

و يذكر رابح تركي دور الإبراهيمي في تحسين وضعية الطلبة بقوله : « اجتمع الإبراهيمي ببعثة مصر و العراق قبل سفرها من مصر بحضور الفضيل الورتلاني ، كما اجتمع الأستاذ بأغلب الوزراء والمسؤولين و ذكرهم بمسألة البعثة ..... و بناء عليه قرر مجلس الوزراء قبول أربعين طالبا.[24]

و يذكر أحمد طالب الإبراهيمي ، أن عدد الطلبة قد تزايد باتجاه مصر ما بين 1952-1954 حيث قبلت الحكومة المصرية التكفل ب 10 طلبة ثم 100 طالب .[25]

كما كان لبلاد الشام سورية نصيب من البعثات العلمية ، و أول بعثة وصلت من طرف جمعية العلماء كانت سنة 1952 و التي بلغ عدد أفرادها حوالي 11 طالبا .

هذا إلى جانب بعثة دولة الكويت 14 طالبا و العراق 11 طالبا .

كما لمحت البصائر إلى دور الإبراهيمي مع البعثات العلمية بقولها : « و قد سبقته إلى القاهرة بعثة جمعية العلماء إلى العراق و بأمر منه لم تواصل سفرها إلى بغداد حتى جاء هو إلى مصر فاجتمع بها و تعرف على أعضائها ... كما اجتمع ببعثة الجمعية في مصر و ألقى فيها خطابا نوّه به بدور العلم بين الأمم .....» [26].

و إذا كانت الحكومات العربية في المشرق قد تحملت تكاليف إيواء الطلبة ، فإنّ جمعية العلماء هي التي تولت إيواءهم في تونس و المغرب ، حيث يقول الإبراهيمي في هذا الصدد..... « أما مدرسة تونس فقد كانت الجمعية تدفع ثمن كراءهما كل سنة « [27] .

و قد وصلت عدد البعثات إلى الخارج سنة 1854 كما يلي :

مصر 23.

الكويت 14.

العراق 11.

سوريا 10.

تونس 86.

المغرب 44.

و في خطاب له للطلبة المهاجرين في سبيل العلم نشرته البصائر في العدد 9 ليوم 03 أكتوبر 1947 جاء فيه [28].

« إلى أبنائي الطلبة المهاجرين في سبيل العلم و أوجّه النداء إلى جميع أبنائنا المهاجرين إلى المشرق العربي ، أو إلى أطراف المغرب العربي، أو إلى أوربا، ثم أخصّص المهاجرين إلى تونس لأنهم كثرة ، و لأن في أحوالهم لغيرهم عبرة .

إنّكم يا أبناؤنا مناط آمالنا ، و مستودع أمانينا، نعدكم لحمل الأمانة الثقيلة ، لاستحقاق الإرث ، و هو ذو تبعات و ذو تكاليف ، و ننتظر منكم ما ينتظره المدلج في الظلام من تباشير الصبح .

إن آباءكم يتخيّلون من وراء هجرتكم ما يعود به المجاهد و المقدام من أجر و غنيمة ، و ما يرجع به التاجر المخاطر من أرياح و طرائف .

و إن الوطن – وهو أبو الجميع – يتطلع من وراء هذه الهجرة إلى إحياء و تعمير و إعادة مجد وبناء تاريخ ، نحن نعلم أن الأب العامي الفقير حين يرضى بفراق ولده ، و يزوّده ببعض ما يملك من قوت العيال الصغار طائعا مختارا مطمئنا ، و إنما يفعل ذلك اعتقادا بأن فعله تكفير عن جريمة الجهل ، و محو لوصمة الأمية ، و تنصّل من ضعة الخمول ، و أن الأب العالم الذي يرضى بذلك و يهون عليه ، إنما يفعله معتقدا أن ولده سيكون أعلم منه ، و أوسع اطلاعا ، و أنفذ بصيرة على نسبة من زمنه ، و لا يعتقد غير ذلك منهم إلا مغرور بنفسه ، الجاهل أحسن إدراكا للزمن منه ، و أن الوطن حين يرضى بخلوّه من أبنائه أنهم ما أخلوه إلا ليعمروه ، و ما قطعوه إلا ليصلوه ، و ما فارقوه شبانا عزلا ليعودوا إليه كهولا مسلّحين بقوة التفكير ، تظاهرها قوة العلم ، تظاهرها قوة العمل .

إن أسلافكم كانوا يعدّون في سبيل العلم من شروط الكمال فيه ، بل كانوا ، في دولة الرواية ، يعدّون الرحلة للقاء الرجال من شروط الواجب ، فكانوا يقطعون البراري و الصحاري و القفار ، و يلقون في سبيله المعاطب و الأخطار ، و كانوا يجوعون في سبيله و يعرون ، و يظمأون و يضحون، و لا يشتكون الفاقة و النّصب ، و لا يعدّون الراحة إلا التعب ، و لكنهم لا يضيّعون أوقاتهم – إذا وصلوا إلى أمصار العلم و لقوا رجاله –في مثل ما تضيّعون فيه أوقاتكم من إسفاف و لغو ، بل كانوا يحاسبون أنفسهم على دقيقة أن تضيع إلا في استفادة و تحصيل .

يا أبناءنا إن الحياة قسمان : حياة علمية ، و حياة عملية ، إن الثانية منهما تنبني على الأولى قوة وضعفا ، و إنتاجا و عقما ، و إنكم لا تكونون أقوياء في العلم إلا إذا انقطعتم له ، و وقفتم عليه الوقت كله، إن العلم لا يعطي القياد إلا لمن مهره السهاد و صرف إليه أعنّة الاجتهاد .

لا تعتمدوا على حلق الدروس وحدها ، و اعتمدوا على حلق المذاكرة ، إن المذاكرة لقاح العلم ، فاشغلوا أوقاتكم حين تخرجون من الدرس بالمذاكرة في ذلك الدرس ، إنكم إن تفعلوا تنفتح لكل أبواب العلم ، و تلح لكم آفاق واسعة من الفهم .

لا تقنعوا بالكتاب المقرّر ، و اقرأوا غيره من الكتب السهلة المبسوطة في ذلك العلم ، يسلحكم الملكة و يتسع الإدراك ، و سينتهي الإصلاح الذي تقوم به إدارات جامعاتنا إلى اختيار كتب سهلة ممتعة في كل علم ، تفرض عليكم قراءتها و مطالعتها ، ثم كتب أخرى ، في المعارف العامة ، كالتاريخ ، و الأدب ، والحكمة ، و الأخلاق ، و التربية ، فوطّنوا أنفسكم على ذلك من الآن ، و روّضوها على اختيار النافع المفيد من الكتب ، و من العار الفاضح أن لا نرى في الكثير من أبنائنا الذين تخرّجوا من الزيتونة ، واتجهوا بفطرتهم إلى الأدب ، من استوعب كتاب الأغاني قراءة ، و لا في من اتجهوا إلى علوم الدين من استوعب قراءة الصحيحين و السنن ، و لعمري ما سلاح الأديب إلا الأغاني و أمثاله ، و لا سلاح الفقيه إلا تلك الكتب و أشباهها .

لا تقطعوا الفاضل من أوقاتكم في ذرع الأزقة إلا بمقدار ما تستعيدون به النشاط البدني ، و لا في الجلوس في المقاهي إلا بقدر ما تدفعون به الملل و الركود.

و أنكم يا أبناءنا فارقتم الأهل ، و فيهم الآباء و الأمهات ، و فارقتم الديار التي خلعتم فيها التمائم ، وفارقتم الوطن الذي له على كل حرّ كريم دّين ، وفاؤه الحب ، و كفاؤه النفع و الجميل ، و ما هوّن فراقكم على آبائكم و هوّن فراقهم عليكم إلا الآمال اللائحة لكم و لهم في مستقبلكم ، و لما

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تعودون به من علم يصحبه فخر ، و حسن ذكر ، و طيب أحدوثة .

أن وطنكم مفتقر إلى جيل قويّ البدن ، قويّ الروح ، مستكمل الأدوات من فضائل و عزائم ، و إن هذا الجيل لمنتظر تكوينه منكم ، و محال أن تخرج الحالة التي أنتم عليها جيلا بهذه الصفات .

لا تعتمدوا على حفظ المتون وحدها ، بل أحفظوا كل ما يقوّي مادتكم اللغوية ، و يُنمي ثروتكم الفكرية ، و يُغذي ملكتكم البيانية ، و القرآن القرآن ، تعهدوه بالحفظ و أحيوه بالتلاوة، و ربّوا ألسنتكم على الاستشهاد به في اللغة و القواعد، و على الاستشهاد به في الدين و الأخلاق ، و على الاستظهار به في الجدل ، و على الاعتماد عليه في الاعتبار بسنن الله في الكون .

يا أبنائي !

إن الزمن قد وضعكم وضعا صيّركم جديرين بأن تطلبوا العلم لوجه الله ، و لوجه العلم، لا للوظائف و لا للشهادات .

تطلبون الوظائف في تونس ، فيحول بينكم و بينها نظام الاحتكار ، و تطلبونها في الجزائر فتمنعكم منها سياسة الاستعمار !و ربّ ضارّة نافعة !

إذا كانت السياسة الاستعمارية تجعل منكم جزائريين في تونس ، ثم تجعل منكم فرنسيين في الجزائر ، فاطغوا عليها بقوة الإرادة ، و بقوة العلم ، و بقوة الشباب ، و كونوا وسطا عامرا لا تظهر فيه الجزائرية و لا التونسية ، و لا تفترق فيه الأنساب ، و إنما تجمعكم فيه العروبة و الإسلام ، و وطنيتهما العامة ، و إن الوسط هو الذي يسود في المستقبل القريب ، و هو الذي تمحى معه الخطوط الجغرافية، و الحدود الوهمية

لا تستشعروا الغربة فأنتم في وطنكم و بين أهليكم ، و في وطنكم الجامع .

و إن دم الجيل و مزاجه ليتعاطف انب الإلهام ، فاجروا على إلهام الخير مع إخوانكم الشبان تنم المحبة و تقوَ بواعث الخير .

إن في تونس تيارات مختلفة اقتضتها مقتضيات زمانية و مكانية خاصة ، فإياكم أن تنغمسوا فيها ، أو تكونوا في جانب دون جانب .

و إذا دعاكم منها داع فاعتصموا بالعلم الذي هاجرتم لأجله ، و بالمعهد الجليل الذي تذوب بين جدرانه جميع الاعتبارات .

الهوامش :

1 – د عمر بن قينة. المشكلة الثقافية في الجزائر التفاعلات و النتائج. الأردن ، دار أسامة للنشر و التوزيع ،ط1 ،2000 ، ص23.

2 – نفسه ، ص24.

3 – د.عبد الحميد درويش . عبد الحميد بن باديس و آراؤه الفلسفية بين النظرية و التطبيق 1940/1889. ج1،ط1 ، القاهرة ن مكتبة جامعة القاهرة 1995. ص 62-61.

4 – الشيخ محمد خير الدين. مذكرات . ج1 ، الجزائر ،مؤسسة الضحى 2002 ، ص 115/114.

5- نفسه ، ص116.

6- البصائر عدد 54 ، 25 أكتوبر 1948 ، ص 1 .

7- الآثار ، ج 4 ، ص 240 .

8 – تركي رابح ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التاريخية (1931 – 1956) الجزائر ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، ص 85.

9- البصائر ، العدد 173/172 ، 15 أكتوبر 1951 ، ص 3.

10 – الآثار ، ج1 ، ص 309.

11 – الآثار ، ج3 ، ص 308.

12 – الإبراهيمي ، « أنا» الموافقات ن العدد4 ، جوان 1995 ، ص 380.

13 – أمين بلعيفة . التنشئة السياسية عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين 1956/1931. رسالة ماجستير ، جامعة الجزائر . كلية العلوم السياسية و الإعلام ، قسم العلوم السياسية ، 2008 ، ص32.

14- مذكرات الشيخ خير الدين ، مرجع سابق ، ص 205/204.

15 – (محمد صالح الجابري ، النشاط العلمي و الفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900-1952 ، ط1 ، الدار العربية للكتاب ، 1983 ، ص 100) .

16 – (أحمد مريوش ، الحركة الطلابية الجزائرية و دورها في القضية الوطنية و ثورة التحرير 1954) .

17 – محمد الهادي الحسني ، الإبراهيمي رئيسا لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين. الموافقات العدد 4 ، جوان 1995. ص564.

18 - Amar Hellal , le mouvement réformiste algérien ,les hommes et l'histoire 1831-1957, 298 p.

19- Hellal ,op.cit , p 193 .

20 – محمد الهادي الحسني. من وحي البصائر. الجزائر ، دار الأمة ، 2004 ، ص565.

21- Hellal ,op.cit , p 254 .

22 – مذكرات الشيخ خير الدين ، ص 356 .

23 – أ حمد مريوش ، « الحركة الطلابية الجزائرية و دورها في القضية الوطنية و ثورة التحرير 1954 .أطروحة لنيل شهادة دكتوراه. قسم التاريخ ، جامعة الجزائر، 2006/2006 ، ص 248) .

24 – رابح تركي ، نقلا عن مريوش ، ص 248.

25 – الآثار ، ج5 ،ص 158 .

26 – البصائر عدد 208 ، 1 ديسمبر 1952 .

27 – الآثار، ج3 ، ص 571.

28- المجلس الأعلى للغة العربية ، مقتطفات من آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ، ص 78-84.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com